
maktabbah.blogspot.com
ميسره الدنداوي
حارس
سيكون هناك دم
كتوبيا
مكتبة
بيت المصريات
maktabbah.blogspot.com

مشهد افتتاحي

نهار – داخلي

في وقت ما في يوم ما..

في مكان ما..

الرياح تعوي في الخارج، تعوي بلا انقطاع وبلا رحمة

إنها أيام الربيع الملعونة، الأيام التي ينشط فيها الفانون في الخارج، فيخرجون إلى ضفاف النهر العظيم، والأسماك المالحة تخرج رائحتها النفاذة من حقائب الخوص، والضحكات الرائقة تخرج من بين شفاههم المتشققة من أثر الرياح القوية، التي تخرج من الغرب حاملة أتربة الصحراء، وغضب الغاضبين المارقين.

لكن سيدي يبدو مهيبًا، شامخًا، عاصيًا على الموت نفسه، شامخًا كجبال الغرب، وبشرته الخضراء الرائقة تلمع في ضوء الشمس المتسرب من بين شقوق الجدار في حجرته الملكية الخاصة.

ينظر إلى اللوح الزجاجي العاكس المثبت فوق الجدار بصمغ الأشجار، والذي آتى به من بلاد النوبة هذا العام، ويقول في هدوء:

- أتعرف يا انبو، لو لم يكن كل منا مختلفًا، لما كان لنا أن نكون بشرًا.

- لكننا لسنا كالبشر يا سيدي.

يلتفت نحوي وذلك البريق الأخاذ يلمع من عينيه، ثم ينظر إلى

اللوح من جديد قائلًا:

- هل عصت كلمة أبي على شفتيك يا ابن اوزير.. حتى صرت لا تنطقها؟

ابتسم تلك الابتسامة الغامضة القاتمة المنزوية في أطراف شفتي، والتي يقول أنها تذكرني بعمي القاطن في كهوف صحراء الغرب، ثم أتابع:

- إنها العادة والتعود فقط يا سي.. يا أبي.

- ما قتل البشر إلا التعود يا ولدي.. لكنها سنة الحياة.. دورات لا آخر لها.. فقط ميزنا الرب الكريم بأننا لا نخرج من تلك الدورات.. بل نبقى فيها إلى أن تحترق بأكملها.

قلت هامسًا بصوت لم أسمعه أنا:

- لا أدري أميزنا الرب بذلك.. أم أنها نقمته علينا؟

- لا تهمس بكلام تخشى أن تقوله يا انبو.. كن كالنهر العظيم.. يلقي بما فيه دون أن يخشى أحدًا.

حكيم أبي، سيدي الملك الذي يأتي الخير من بين يديه ومن خلفه، لكن من قال أن الحكمة قد تقي شر المنون!

- كنت أقول أنني لا أدري إن كان الرب قد من علينا أم نقم علينا بهذا العمر الطويل.

التفت نحوي، ثم اقترب مني في هدوء وهو ينساب على الأرض -فقد جعل له الرب العظيم مَلكة أن ينساب وأن تطوع الأرض له- ثم وضع يده الطاهرة الخضراء فوق خدي الخشن، فشعرت بالرضا ينساب إلى روحي -فقد منحه الرب العظيم قدرة شفاء

أوجاع النفس- وقال بصوته المهيب المحبب للنفس:

- لقد جعلنا الرب مختلفين.. ومنحنا تلك الحياة الطويلة.. وتلك الملكات العاصية على قوى الطبيعة.. كي نجعلها في خدمة عباده المخلصين.. ونجعلها وبالًا على عباده العاصين.. وجعل لنا الاختبار كي نعرف إن كنا في طرف هؤلاء أو هؤلاء..

ثم رفع إصبعه الرفيع الطويل أمام عيني قائلًا في خشوع:

- فاشكر ربك يا أنبو.. اشكر ربك واستعد للاختبار.. لأن القادم لم يأتِ بعد.. لم يأتِ بعد.

***

الحلقة الثانية

سيكون هناك دم...

المشهد الأول

ليل – داخلي.

مصلحة الطب الشرعي - القاهرة الجديدة.

مساء الثلاثين من يناير عام ألفين وثلاثين.

انكبت إيرين على عدسة المجهر القديم، المصنع في أواخر تسعينات القرن العشرين، والذي ورثته من خلفها وأستاذها الراحل في عالم الأموات، ثم رفعت وجهها النحيف وراحت تحك أنفها الكبير وهي تعدل من عويناتها، بينما صوت قطمات أعواد البقسماط يدوي كآلف قرعة طبل في خلفية المشهد العبثي.

- ممكن تسيب البقسماط ده شوية وتصحى معايا كده؟

- هو أنا لقيت حاجة غير البقسماط وقولت لا؟

ثم زام الحلواني بصوته الثقيل المليء بنوم لم يكتمل، ونظر إليها بحدة طفل في العاشرة من خلف عويناته السميكة:

- تقوليلي نص كفتة ونص طرب.. وآجي ألاقي مكتب طويل عريض فيه كيسين شيبسي وعلبة تونة متاكل نصها.. آنا تأكليني الشاورما يا إيرين؟

- احمد ربنا إنك لقيت معاك البقسماط ده.

- احمدي أنتِ ربنا.. وإلا كان زماني متبل الجثة دي وشاويها على خشب المكتب.

- ده ألمونيوم مش خشب.

أشاح بيده المكتنزة، ثم قضم آخر أعواد البقسماط التى لا تخلو منها حقيبته في غل، وراح يمضغها محدثًا أكبر ضوضاء ممكنة، فأولته إيرين ظهرها وعلى وجهها ابتسامة خبيثة، وهي تتصور الحلواني يقطع البصل فوق الجثة المهيبة، ثم يرش أكوامًا من الملح عليها كي..

- دم.. ده دم مفيش كلام.. أنا مستغرب إنك ما خدتيش بالك من ده.

قطعت جملته المليئة بأكوام البقسماط وبقايا الكولا حبل خيالاتها الطفولية، فقالت وهي تراقب شاشة المجهر الإلكتروني:

- كان لازم أتأكد.. وعشان كده طلعت مجهر المرحوم القديم

وحبيت أتأكد من حاجة معينة.

- إن الدم ده اتكتب بصباع مش بسن قلم ولا عصاية ولا الكلام ده.. اللي بعده. وإن الدم ده دم الضحية يا أستاذ يا ألمعي.

ضرب رأسه في خيبة أمل، ثم نهض من مكانه وهو يحمل زجاجة الكولا البلاستيكية من مقاس لتر كامل، وجرع جرعة كبيرة وهو يتابع:

- طب ما ده سهل، أنتِ لو عملتي المقارنة والكروموتجراف هتخلصيها في خمس دقائق، أنتِ مستنية مجهر المرحوم دكتور علام عشان يقولك.

- لا مش المجهر اللي هيقولي.. أنا بس كنت عايزة اتأكد إن مفيش حاجة تانية مع الدم.. بالذات يعني على أطراف الحروف.

- ولا كنتِ عايزة حاجة من ريحته وبتتحججي؟

وكأنما صدمها الحلواني بدلو من الثلج، وفي رد فعل مبالغ فيه للغاية، التفتت نحوه وعلى وجهها نظرات شرسة كنمرة أخذوا صغارها الرضع، ثم قالت في شراسة مماثلة:

- أنا ما أسمحلكش بالتعليق السخيف ده.. الدكتور علام ده كان استاذي ومعلمي و.. وبس.

- ولا تسمحيلي.. مش فارقة.. خلينا في اللي قدامنا.. أحسن أنا جعت وعايز أشرب قهوة.. والدكتور مأكد عليَّ إني لازم آكل خمس وجبات في اليوم عشان الدايت.

- اللاتيه جاي في الطريق.. ما تقلقش.

- طب والطرب؟

ضحكت بصوت عال، ضحكة استعجبت هي منها على وجه الخصوص، ثم غطت فمها الصغير وهي تدير وجهها إلى اتجاه معاكس، لتصدم عينيها أنفُ القتيل الأرستقراطية الشامخة، فتميت الضحكة كما نبتت.

- الغريبة بقى يا حلواني إني اكتشفت اكتشاف مثير آوي.

- ايه.. اكتشاف ايه؟

دق الهاتف الداخلي بأزيز مختلف يوحي بأن هذه المكالمة من داخل الإدارة وليست من خارجها، فاتجهت إيرين للهاتف وهي تتنحنح في هدوء، وما إن رفعت السماعة حتى تحول صوتها الرقيق الخافت إلى صوت جامد صارم:

- أيوة.. طيب.. خليه يخش.. لا البروتوكول المعتاد.. ايه يعني ضابط شرطة.. قولت البروتوكول المعتاد.

ثم وضعت السماعة في عنف غير مبرر، ثم عدلت وضع عويناتها بيد مرتعشة:

- ايه الاوفر ده.. طب ما أنا معدتش بالبتاع اللي أنتِ بتقولي عليه ده.. اشمعنى الأخ؟

نظرت نحوه بعين خاوية، ثم مدت يدها إلى درج مكتبها، وأخرجت عبوة من البسكويت المالح وقذفتها نحوه، فالتقفها في لهفة:

- إلهي يطعمك ما يحرمك.

ابتسمت وهي تنظر نحو شاشة المجهر الإلكتروني، لترى وجه

علام العجوز الباسم ينظر لها في هدوء وحنان.

- طول عمره طفس الحلواني.

- بس غلبان وقلبه طيب.. ثم إن ده اللي فاضلي من ريحتك.

- والمجهر.. نسيتِ المجهر؟

- ده أنا بقيت بقول عليه مجهر مش ميركروسكوب علشانك أنت.

تنحنح الحلواني في صمت، فانقطعت خيالاتها وكلماتها وأفكارها وهي تنظر له بنظرتها الخاوية -التي تنبت على وجهها كلما أخرجها أحدهم من شرودها-

- اسمعيني يا ايرين.. البني آدم لازم يكمل.. ويكمل بمعنى إنه مش بس يكمل شغل ويكمل أكل وشرب ونوم.. لا يا إيرين.. لازم يكمل ويعرف إن الحياة مراحل.. وإن لما المرحلة تخلص.. تبقى خلصت.. خلصت بكل اللي فيها.. ولازم ننقل على اللي بعدها..

- وأنت شايفني مقطعة شراييني ولا ماشية بكلم نفسي زي الـ...

ثم قطعت جملتها أمام ابتسامته الحنون الصامتة، الابتسامة التي قطعت كلماتها المليئة بأمواج الإنكار:

- المهم.. قوليلي.. مين الأخ الضابط ده؟

- بعدين هقولك على كل حاجة.. المهم استعد عشان هو جاي ومعاه حالة جديدة.. ولازم نبص عليها سوا.. عشان جنب الجثة لقوا نفس الورقة إياها.. والمرة دي عايزاك تشوفها لايف.. وهي لسه بنار الفرن.. والدم لسه طازة على الـ..

- يا ساتر على تعبيراتك يا شيخة.. خلاص ما هي مفهومة.. مش لازم توضحي.

ابتسمت ابتسامتها الطفولية العابثة، ثم نظرت إلى شاشة المجهر من جديد وهي تتابع:

- وبعدها.. هعزمك على كيلو كفتة وكيلو طرب كمان.

وللمرة الأولى في تلك الليلة، رأت تلك الابتسامة الواسعة المرحة على وجه مصطفى الحلواني.

***

المشهد الثاني

نهار–داخلي

مكتب وزير الداخلية-القاهرة الجديدة

صباح السابع عشر من فبراير عام ألفين وثلاثين

دق محمد حارس الباب في هدوء، ثم أتبع دقته بنحنحة بسيطة، ثم فتح الباب مع أول حرف من كلمة «ادخل»، وقبل أن يكتمل حرف اللام على شفاه اللواء توفيق، كان قد دلف بقامته الطويلة وبشرته السمراء إلى داخل المكتب.

- صباح الخير يا معالي الوزير.

- أهلًا يا محمد باشا.. اتفضل ارتاح.

ثم نظر له نظرة ذات معنى، فتنحنح حارس من جديد وهو ينظر عبر المتر الفاصل بينه وبين الضيف.

عينان رماديتان باردتان نفاذتان، وشفتان حال لونهما من أثر

التبغ والشراب، وقامة رفيعة تحمل على أطرافها العلوية كتفين عريضتين، ووجه غزته بعض التجاعيد حول العينين والشفتين المزمومتين دائمًا، يحمل فوقه شعرًا أشقر قصيرًا قُصَّ على هيئة ضباط الجيش.

- هو ده الخواجة؟

قالها حارس وهو يبتسم ابتسامة دبلوماسية مزيفة رسمها بإتقان على وجهه، إلا أن التعابير الباردة لوجه الضيف الأجنبي أخفت تلك الابتسامة بنفس السرعة التي ظهرت بها.

- بيعرف عربي كويس يا محمد باشا.

- والله.. جميل.

ابتسم مايكل سميث في برود، ثم وضع ساقًا نحيلة عصبية فوق أختها، وضم كفيه المعقودتين إلى ركبته البارزة.

- مش عربي بس يا مستر محمد.. أنا كمان بعرف عربي مصري كويس.. وفرنساوي ويوناني.

- يا ما شاء الله.. الحصيلة اللغوية ممتازة.

ميز مايكل سميث النبرة الساخرة من بين كلمات حارس، بينما تنحنح توفيق محاولًا تبديد حساسية الموقف، وقال وهو يتشاغل ببعض الأوراق على مكتبه:

- مستر مايكل سميث محقق في سكوتلاند يارد.. هو في الحقيقة كبير محققين في سكوتلاند يارد.

Chief Inspector Detective يا معالي الوزير.

- أيوة زي ما قال كده.. كبير محققين.

هز حارس رأسه مرحبًا في برود، فتابع توفيق من بين أسنانه المضغوطة على سيجارته:

- مستر مايكل سميث مكلف من قبل حكومة جلالة الملك عشان يشارك في التحقيقات.

- تحقيقات ايه يا فندم؟

ابتسم سميث من جديد، ثم أزاح ساقه إلى جوار أختها واقترب بجذعه من حارس قائلًا:

- التحقيقات في قضية القاتل إياه يا مستر حارس.

- عقيد.. العقيد محمد حارس رئيس مباحث الـ

- أيًا كان يا سيادة العقيد.. المهم إني هنا عشان أشارك بفعالية.. Actively participating في التحقيقات.. بعد الاتفاق بين رئيس الوزراء المصري وبين سير براين..

عربيته المصرية سليمة وحادة بشكل أثار إعجاب حارس –برغم مقته لكل ما هو إنجليزي– وعيناه الرماديتان الباردتان ذكرتا حارس بنظرات شخص عرفه يومًا ما في وقت بعيد.

- مش كده برضه يا معالي الوزير.. ولا أنا في حاجة في كلامي مش صحيحة؟

- لا يا مستر سميث.. كلامك صح.

قالها توفيق وهو يعتصر السيجارة بين فكيه وينظر لحارس نظرة فيما معناها «ليس الامر بيدي ولا بيدك» بينما قال سميث

وهو ينهض:

- أعتقد كده إن التعارف تم.. فأنا هنتظر منك مكالمة يا مستر محمد.. قصدي يا عقيد محمد.. عشان نتعرف على فريق التحقيق ونبدأ نتكلم في التفاصيل.. تشرفت يا معالي الوزير.. تشرفت يا معالي العقيد

ثم ضم طرفي معطفه الأسود الصوفي الشبيه بمدفئة متحركة، وخطا خطوات طويلة ثابتة نحو الباب، وأغلقه خلفه في هدوء.

- يعني ايه الكلام ده يا توفيق باشا؟

- ولا كلمة.. أنا مش ناقصك ولا ناقص حفلطتك دلوقتي.. أنت هتنفذ التعليمات زي ما أنا بقولها.. وبعدين نبقى نتكلم..

- بس يا فندم....

- حارس!

قالها في غضب مكتوم، قاطعًا كل ما كان محمد حارس ينوي النطق به، ثم نهض من مكانه وهو يطفئ ما تبقى من سيجارته، ويلقي بواحدة جديدة بين شفتيه مشعلًا إياها، واقترب من حارس وهو ينظر في عينيه نظرة صارمة ودخان سيجارته يملأ الفراغ الضيق بينهما:

- أنت هتنفذ التعليمات.. هتنفذها زي ما جت.. بس بطريقتنا.. طريقتنا احنا يا محمد باشا.. فاهم؟

ثم تحولت نظرته الصارمة إلى نظرة جذلة خبيثة ماكرة، فابتسم حارس وهو يرفع يده اليمنى إلى جبهته قائلًا في هدوء:

- تمام.. تمام يا معالي الوزير.

بادله توفيق الابتسامة، ثم أشار له بطرف سيجارتهالمتدلية من فمه بطريقته الشهيرة، وقال في هدوء:

- انصراف يا سيادة العقيد.. انصراف.

استدار حارس في هدوء وهو يغلق سحاب سترته الجلدية ويهم بالانصراف، وبينما يفتح الباب، قال توفيق بنبرته الهادئة:

- وما تنساش تكون فريق.. أصل العالم الخواجات دول بيحبوا الفرق جدًا.

- تمامًا معاليك.

ثم انصرف العقيد محمد حارس غالقًا الباب خلفه، تاركًا معالي الوزير ذا التاسعة والأربعين وهو ينفث الدخان كقاطرة بخارية قديمة، ويقول من بين أسنانه القابضة على السيجارة:

- بطريقتنا.. كل حاجة بطريقتنا.

***

المشهد الثالث

نهار - خارجي

في وقت ما في يوم ما..

في مكان ما..

أصوات العامة تتعالى في حماس هاتفة باسم سيدي ملك كيمت.

أوزير.. أوزير.. أوزير.

فيلوح لهم سيدي في بهاء، وهو يبتسم ابتسامته الوقورة تحت التاج الأبيض الناصع، وعيناه الواسعتان تجولان في الجموع الصاخبة الهاتفة، كأنها تبحث عن شيء ما.

وفوق المنصة الرخامية البسيطة، وفي طرف خفي ، يجلس تحوتي ممسكا بقلم مصنوع من البوص الحاد، يغمسه في تلك الخلطة التي صنعها بنفسه، ويسجل وقائع ذلك اليوم الخالد فوق أوراقه التي صنعها سيدي بيديه الطاهرتين من نبات النيل الطيع.

بينما تهمس سيدتي في أذني بصوتها الشبيه بنسمات الربيع:

- يبدو متألقًا اليوم في هيئته الفانية..في رأيي أن البشرة الخمرية تلائمه اكثر من بشرته الخضراء.

- في رأيي أن الحقيقة هي أكثر الأشياء ملائمة.

فتبتسم في حنان، ثم تميل على أذن شقيقتها نفت، وهي تهمس لها بشيء مما يهمس به النساء، فتضحك نفت ضحكتها الشبيهة بحفيف الحية، ثم تعودان للابتسام في هدوء بتلك الابتسامة الملكية.

لا أدري كيف عادتا إلى صفائهما المعتاد، فلو كنت في مكان است، لأطلقت تعاويذي وحولت نفت إلى حية، ثم أولجت عصا الملك التي يقبض عليها سيدي في حلقها، حتى تموت مختنقة.

لا أفهم النساء، ولا أعرف كيف يفكرن، وإلا لكنت فهمت كيف سامحت است الطاهرة النقية في إغواء أختها الوحيدة لزوجها

الملك، والتي كانت نتيجتها هي أنا.

طفل منبوذ منفر الشكل، ملقى في وسط الصحراء بلا أب ولا أم، تتلقفه بنات أوى بالرعاية، حتى تعثر عليه است الحنون، فتتخذه ابنًا وصديقًا.

بينما أمه الشمطاء ذات الضحكات الثعبانية، التي تتحول إلى حدأة في الأيام العاصفة، تجلس ملطخة بالأصباغ الملكية على بعد أمتار منه، وهي حتى لا تفكر أن تنظر له مبتسمة.

لا أنكر أنني في بعض الأحيان، قد أبدي احترامًا ما لتلك المرأة القوية، لكن است بالنسبة لي هي المرأة، وهي الأم، وهي الأخت والصديقة والرفيقة.

هي الملكة التي لم يتوجها أحد، لكنها توجت نفسها فوق عرش القلوب، القلوب التي تهتف لزوجها ومليكها، سيد كيمت، وملك الأرضين والصحراء، والمتوج بأمر الرب.

بينما يجلس تحوتي منكبًا على الأوراق، يرسم في مهارة وجه سيدي الوسيم الشامخ، وهو يخاطب شعبه المتحمس، ويعدهم بالمزيد من الخير في عامهم هذا.

لكن تحوتي لم يكن يرسم وجه سيدي بهيئته البشرية الفانية، وبشرته الخمرية، بل كان يرسمه بهيئته التي نراها خلف أبواب القصر.

بل في الحقيقة، كان يرسمني أنا كذلك، بهيئتي التي يراها الجميع خلف أبواب القصر.

أنا أنبو.

ربيب بنات آوى.

كنت أطالع ما يفعله في افتتان، وهو يترنم بكلمات الرب التي علمها له رع المقدس، لكنَّ شيئًا ما جعله يصمت.

توقفت شفتاه البشريتان الرفيعتان عن الترنم، وتوقفت يده بقلمه الحاد، وشخص بصره في الفضاء خلف الجموع الهاتفة.

- تحوتي.. ماذا دهاك يا أخي؟

- ها.. لا ادري.. لكن شيئًا ما ليس على ما يرام.

- هل هي الرؤى من جديد؟

- بل ما هو أكثر يا ابن عمي.. فالرؤى لا تتوقف.. لكن ما أشعر به الآن ليس رؤى.. يبدو أن هناك..

ثم صمت، وعقد حاجبيه الكثين وعيناه الضيقتان تزدادان ضيقًا، ثم ترك القلم بجوار صحيفة الورق، ونهض واقفًا، وهو يرفع يديه الطويلتين إلى السماء، ثم جلس على ركبتيه وهو يغلق عينيه الضيقتين، وأصابع كفيه السبابة والوسطى معقودتان.

- إن تحوتي الآن يستبصر، فلتصمتوا قليلًا.

راحت شفتاه تهتزان، بينما أصابعه تلمعان بذلك الضوء الرمادي، كيف يكون الضوء رماديًا، لا أدري، لكني لم أرَ هذا الضوء سوى حول أصابع تحوتي، أو في عيني سيث.

سيث، يا إلهي الرحيم، كيف نسيت!

بينما تحوتي يهمس بصوته العميق:

- إنه قادم.. من بين التلال.. يمشي الهوينى.. خطواته الواسعة تثير حولها العواصف.. وخطمه الطويل يخور بترانيم الشر والمرض.. وخلفه تدق طبول الحرب.. وعلى أثر خطواته علامات الويل.

ثم فتح عينيه، ونظر نحوي في هلع قائلًا:

- إنه قادم.. قادم.. قادم والدم يسيل من طرف عباءته السوداء.

بينما الجماهير المنشغلة ببهاء سيدي تهتف بلا انقطاع:

اوزير.. اوزير.. اوزير.

***

المشهد الرابع

ليل–داخلي

مصلحة الطب الشرعي-القاهرة الجديدة

مساء الثلاثين من يناير عام ألفين وثلاثين

تنحنحت إيرين مرتين، وكأنها مطربة تستعد لأداء وصلة غنائية كلاسيكية، ثم أمسكت في يدها اليمنى بجهاز التسجيل الإلكتروني الصغير، والموصول بتقنية البلوتوث بذلك الكمبيوتر المحمول الراقد فوق مكتبها، وضغطت الزر الأحمر الصغير فوق الشاشة السوداء، وهي تقول في هدوء رسمي بارد:

- ثلاثين يناير الساعة حداشر وأربعين دقيقة مساء.. وصول جثة السيد مهدي جابر عطالله إلى قاعة الفحص في مصلحة

الطب الشرعي الجنائي بالقاهرة الجديدة.. وبدأ الفحص في حضوري أنا إيرين شكر الله عبد المسيح.. الطبيب الشرعي المكلف من قبل السيد إبراهيم أبو النور.. رئيس نيابة القاهرة الجديدة.. والسيد مصطفى عبد القادر الحلواني.. خبير الأدلة الجنائية.. وذلك لاستشارته في بعض الآثار المصاحبة لجثة المجني عليه.

ثم ضغطت الجهاز لتوقف التسجيل، مع ارتفاع صوت رشفة من الحلواني من كوب القهوة غالي الثمن، ثم مصمصته لشفتيه تلذذًا:

- اللاتيه ده حلو أوي يا كريم باشا.

- أصل أنا بوصي عليه مخصوص.. وهم عارفيني لأني زبون مستديم عندهم.

هز الحلواني رأسه متصنعًا الاهتمام والاستحسان، ثم نظر إلى إيرين متابعًا:

- مش تقوليلي إن كريم باشا هو الضابط اللي أنتِ مغلسة عليه وعايزاه يتبع البر.. اسمه ايه؟

- البروتوكول المعتاد يا سيدي.. وكأني مثلا أجرب أو محمل بفيروسات بيولوجية خطيرة.. زي فيلم.. كان اسمه ايه يا حلواني؟

- لا عمرك ما تسألني أنا.. ده أنا فاكر اسمي بالعافية يا كريم باشا.

تنحنحت إيرين بصوت مرتفع، فخرجت النحنحة زاجرة

غاضبة، ثم قالت:

- قولي يا حضرة النقيب.. هم ما لقوش حاجة تاني مع الجثة غير الورقة دي؟

- للأسف لا.. الجثة ومعاها الورقة اللي عليها الكلام ده.

- بس ده مش كلام.. آه هو كلام بس مش مفهوم..

قطم الحلواني آخر قطعة من البسكويت المالح، وقال بفم مليء بالبسكويت:

- كنتِ مستنية ايه يعني.. دفتر حل الشفرة يبقى جنب الجثة مثلًا!

ابتسم كريم للفكرة، بينما قالت إيرين بصوت مستنكر:

- حسب ما احنا شايفين سعادتك.. فالجرايم الأربعة مستخدمة نفس الطريقة في التنفيذ.. ونفس الطريقة في التعامل المتوحش مع الجثة.. ونفس قصة الريشة والقلب المنزوع والكلام اللي مكتوب على ورقة جنب الجثة وكأنه عايز يوصل رسالة.

- أيوة أنا فاهم انتِ عايزة توصلي لايه.. عايزة تقولي إنه قاتل متسلسل.. وماله.. أنا معاكِ.

أشار كريم بيده للحلواني، وكأنه يطلب الإذن بالكلام، ثم قال:

- دكتورة إيرين معاها حق يا حلواني.. لو هو عايز يسيب رسايل يلعب بيها معانا أو بالأصح يلاعبنا بيها.. يبقى المفروض الرسايل دي يا تكون واضحة يا تكون ليها مفتاح لحل الشفرة بتاعتها.. وزي الأفلام الأمريكاني كده.. المفتاح ده لازم يكون

موجود في حاجة قريبة من الجثة أو في محيط الجثة.

- أو في الجرايم الثلاثة اللي قبلها.. مش أنت لوحدك اللي غاوي أفلام يا كريم.

خلعت إيرين عويناتها، ثم اقتربت من الورقة الموضوعة على طاولة صغيرة بجوار الجثة العجوز منكوشة الشعر، كثيفة الحاجبين.

- (ار اين.. انتي اونين).. ايه الكلام ده.. لغة ايه دي؟

- دي مش فرنساوي ومش إيطالي ومش روسي.

نظر الحلواني إلى كريم مندهشًا، وألقى بملاحظته التي لا نفع منها عن انبهاره بمعرفة ضابط شرطة صغير بثلاث لغات:

- هايل.. وأكيد طبعًا تعرف إنجليزي كمان.. لا برافو يا كريم باشا.

- لا الحقيقة أنا ما اعرفش ولا لغة منهم.. أنا بس بحفظ إيقاع اللغة ومخارج الألفاظ بتاعتها من الأفلام والمسلسلات.. عشان كده بعرف أميزهم يعني.

للمرة الأولى منذ أن دخلت الجثة إلى قاعة الفحص، ابتسمت إيرين وهي مولية ظهرها لهما، وتخيلت الحلواني وهو يحاول الهروب من الموقف، لكنها قالت في هدوء:

- وبعدين ليه كتب الكلام ده بالعربي.. ليه ماكتبوش بلغة تانية؟

وكأنما ألقت للحلواني بطوق يسحبه من بحار الإحراج، فقال صاخبًا كعادته:

- يبقى هو ده مفتاح الشفرة.. لو عرفنا معنى الجملة دي هنعرف هو عايز ايه.

- وهنعرفها ازاي يا مصطفى.. هننشر إعلان في المواقع نقول يا جماعة حد عارف الكلام ده بأنهي لغة؟

ثم التفتت إليهما وهي تضع عويناتها من جديد فوق أنفها الكبير، لتجد بريقًا في عيني كريم الشاردتين في نقطة ما في حائط الغرفة، بينما الحلواني يحاول إيجاد أي شيء يؤكل في حقيبته؟

- كريم باشا.. يا حضرة النقيب.

- إعلان.. أيوة صحيح.. بوست صغير عالفيسبوك.. حاجة تجذب انتباه الناس وتخليهم يدوروا ويبحثوا ويعملوا شير كتير.. ايه رأيك يا حلواني؟

- أنا متأكد إن كان في واحدة كيت كات كنت شاريها من أسبوعين وما كلتهاش.

ثم قلب كل محتويات الحقيبة فوق المكتب، فصاحت إيرين غاضبة:

- يا حلواني.. حاسب يا بني آدم أنت.

- أيوة.. لقيتها اهيه.. والحمد لله تاريخ الصلاحية لسه بعد شهر.. ها كنا بنقول ايه.. اه البوست بتاع الفيسبوك.. جميل.

نظر كريم مندهشًا نحوه، بينما ضحكت إيرين ضحكة مكتومة ارتفع صوتها بضع ديسيبلات عن حدة صوتها العادية، فالتفت كريم نحوها مبتسمًا، فيتصاعد الدم محتشدًا في وجنتيها للمرة

الأولى منذ أربعة أعوام تقريبًا.

- أنت ازاي بتعرف تركز في الحاجات دي كلها مع بعض؟

- أنا كده.. خلقتي كده.. خلينا في المهم يا كريم باشا.. مين بقى اللي هيكتب الكلام ده في البوست بتاع الفيسبوك.. إيرين ما تنفعش عشان....

- عشان معنديش فيسبوك أساسًا.

نظر لها الحلواني مستنكرًا وتابع:

- معندكيش فيسبوك.. ليه عايشة في عصر النهضة؟

- هتقعد تتريق هطلعك برة.. وبعدين ما تنشره انت طالما انت عايش في العصر الحديث جدا جدا.

هز الحلواني رأسه رافضًا وهو يقضم من لوح الشيكولاتة ذي الغلاف الأحمر وتابع:

- أنا برضه ما انفعش.. أنا الاكونت بتاعي متراقب عشان حساسية شغلي.. خصوصًا الجزء اللي مع رئاسة الجمهورية.. وطبعًا كريم باشا ما ينفعش عشان ضابط شرطة.

ضحك كريم بصوت مكتوم وهو ينقر بأصابعه فوق شاشة هاتفه المحمول ذات السبع بوصات، ثم رفع عينيه عن الشاشة وقال في بساطة:

- خلاص تمام كده.. البوست اتنشر خلاص.

- هو مش أنت برضه ضابط شرطة.. ده ممكن يسببلك قلـ.

- لا ما هو ده الأكونت التاني.. أكونت كريم لبيب مش النقيب

كريم لبيب.

اومأ الحلواني برأسه ثم أشار بطرف المتبقي من لوح الشيكولاتة إلى مرطبان كبير، حفظت داخله ريشة كبيرة الحجم نوعًا، وقال متسائلًا:

- الريشة دي اللي جت مع الأربع جثث صح؟

- أيوة.. ولغاية دلوقتي محدش عارف يحدد الطائر ده ايه.

- هتلاقيها وزة ولا بطة.. ولا بجعة.

طقطقت إيرين بشفتيها وهي تهز رأسها رافضة:

- أكبر من ريشة الوزة والبطة.. وناعمة وطويلة مش خشنة زي ريشة البجعة.. هي حاجة كده مش تبع الطيور الطبيعية دي.

- نعامة.

قالها كريم مقاطعًا حوارهما وهو يرفع شاشة الهاتف في وجه إيرين، لترى عليها صورة لنعامة تركض في سرور، بينما بجوارها صورة لريشة نعامة طويلة.

- التكنولوجيا حلوة برضه.

غمغم بها الحلواني وهو ينظر إلى وجه إيرين، وعينيها الواسعتين المتسعتين من خلف المنظار الطبي العريض، ومع طول لحظات صمتها، وانعكاس صورة الريشة فوق عدسات عويناتها، نهض الحلواني من فوق الكرسي المقابل للمكتب.

- إيرين.. إيرين.. أنتِ مبحلقة في الريشة كده ليه؟

- ها.. لا مش مبحلقة.. بس بفكر.

- كده بتفكري.. وبتفكري في ايه؟

رفعت إيرين عينيها من فوق الشاشة، وتبادلت النظر إلىكريم والحلواني، ثم قالت وهي تقترب من الجثة، وتلقي نظرة مطولة على صدر الرجل الذي انتزع قلبه.

قلب منتزع بتلك الطريقة، بلا مشرط طبي ولا سيف ولا سكين، بل كأن القاتل اخترق صدر الضحية بآلة ثاقبة في حجم القلب، ومد يده وانتزع القلب بقوة وعنف، ثم وضع فوقه ريشة نعامة.

- بترمز لايه ريشة النعامة يا إيرين؟

صوت علام الوقور يدوي في جنبات عقلها المزدحم كحافلة قاهرية، فيدوي صوتها الخافت:

- أنت عارف وأنا عارفة هي بترمز لايه.. زي ما احنا عارفين القلب المنتزع ده بيرمز لايه.. بس لا أنا ولا أنت هنقول حاجة من دي.. احنا علماء وعاقلين.. مش....

- مش ايه يا بنت.. هو من امتى كان العلم بيعادي الحقيقة؟

- حقيقة ايه يا دكتور علام.. ما أنا وانت عارفين إن الحاجات دي عمرها ما توجدت.. دي أساطير وحكاوي.. نتسلى بيها في مقالة ولا خبر في موقع وبعدين نخش نام.

كف ممتلئة واثقة ربتت على كتفها، قاطعة تسلسل خيالاتها، فالتفتت لتجد الحلواني ينظر لها في حنان ممزوج بشفقة صديق، وهو يقول هامسًا:

- اللي أنا اشوفه ما ينفعش غيري يشوفه.. وأنتِ ما بتحسيش

بنفسك وأنتِ بتكلميه.

- أنا آسفة.. بس أنا بجد محتاجة أتكلم معاه أوي.

ربت الحلواني على كتفها من جديد ثم قال رافعًا صوته:

- بتفكري في ايه بقى؟

فتحت فمها لتتكلم، لكن صوت كريم المنكفئ على شاشة هاتفه قطع كلامهما قائلًا:

- ريشة النعامة فوق راس ماعت.. محطوطة على كفة ميزان.. والقلب المنزوع من مكانه.. عشان يتحط فوق كفة الميزان التانية.. والوزن هيحدد البني أدم رايح فين.

ثم رفع عينيه ناظرًا في عيني إيرين، والبريق يكاد يضيء غرفة الفحص نصف المظلمة:

- مش كده يا دكتورة.. مش هو ده اللي أنتِ بتفكري فيه؟

- كده.. مش هنكر.. بس الكلام ده خيالات.. آساطير.. يعني مفيش حاجة اسمها ماعت ولا ريشة ماعت ولا ميزان القلب.. كل دي أساطير.. حاجات ابتكرها قدماء المصريين عشان حبهم للبعث والحساب والحياة الأخرى.. لكن مفيش.

- ششششش.

رفع كريم كف يده وهو يصدر ذلك الصوت المهين، فشعرت إيرين وكأنما ضرب وجهها بمقدمة سيارة هامر موديل ٨٠، بينما نظر الحلواني من فوق كتف كريم نحو شاشة الهاتف، وقال متسائلًا:

- واضح إن في رد.. صح؟

- في رد.. بس أفضل إن الدكتورة تقراه بنفسها.. أصل اللي كاتب التعليق ميري بنت خالتها.

عقدت إيرين حاجبيها وهي تضيق عينيها الواسعتين، مركزة طلقات عينيها على وجه كريم، الذي لاحظ الصمت المخيم، فرفع عينيه محرجًا من فوق شاشة الهاتف:

- أصل أنا يعني كنت أعرف ميري من ...

- بعدين يا كريم باشا.. بعدين هتبقى تشرح موقفك لإيرين ولي ولبابا وماما وكلنا.. المهم دلوقتي.. الكومنت بيقول ايه؟

نظر كريم من جديد محرجًا إلى وجه إيرين الغاضب، ثم رفع شاشة الهاتف أمام عينيها، فخلعت عويناتها وتناولت الهاتف وهي تقرأ التعليق، التعليق الذي فك شيفرة كل شيء.

«ما قد كان كان.. وما يجب أن يكون.. سيكون».. مقطع من كتاب الموتى.

ثم رفعت عينيها نحو كريم، الذي ابتسم ابتسامة منتصرة وقال:

- واضح يا دكتورة إن في حد مختلف معاكِ في الرأي.. وبيحاول يحيي طقوس قديمة هو شايف إنها مش مجرد أساطير.

- بمعنى؟

وضع كريم الهاتف المحمول في جيبه، ثم نصب قامته وقال:

- القلب اللي بيتوزن مع الريشة.. بيستلمه أنوبيس.. أنوبيس يا دكتورة.

تذكر انك حملت رواية حارس سيكون هناك دم حصريا ومجانا من على موقع مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والنادرة والجديدة ولتحميل المزيد ادخل على جوجل واكتب فى خانة البحث مكتبة بيت الحصريات هنظهرلك .

***

المشهد الخامس

نهار – داخلي

جامعة القاهرة الجديدة - كلية الآثار وعلوم المصريات

العاصمة الإدارية الجديدة

مساء الثاني من فبراير عام ألفين وثلاثين

جلست سمر على مقعد المكتبة الجلدي، غير المريح، الذي يصطف مثل غيره حول طاولات القراءة ذات المصابيح البيضاء المريحة، وبجوارها كوب حراري، امتلأ بجرعة كبيرة من القهوة الممزوجة بالشيكولاتة الساخنة، وأمامها هاتفها المحمول الذي يعوي في صمت.

- وبعدين معاك يا ماهر بيه.. هو أنا ما أعرفش أركز شوية؟

قالتها من بين أسنانها في ضيق، ثم تجاهلت الهاتف وهي تطالع صفحات الكتاب الثقيل السميك الراقد أمامها فوق

الطاولة الباردة ذات الأرجل المعدنية.

- كلام كتير أوي.. وأنا مش عارفة أفهم حاجة.. أو مخي مش قادر يستوعب حاجة..الله يرحم أيامك يا أكرم.. أهو على الأقل كنت أنت اللي بتفهم في الحاجات دي.

ثم ابتسمت في حنين جارف، وصور عديدة تمر أمام عينيها العسليتين الواسعتين، فوق صفحتي الكتاب المفتوحتين منذ أن جلست في مكتبة الجامعة الجديدة، المنتصبة في شموخ وسط الصحاري المحيطة بالعاصمة الجديدة.

الهاتف المحمول يعوي من جديد، واسم ماهر يتقافز فوق الشاشة.

- يووه.. لا أنا كده مش هخلص.

ضغطت جانب سماعة الأذن اللاسلكية وقالت وهي تهمس في تذمر:

- لما نشوف آخرتها.

ليأتيها صوت ماهر الرفاعي الرنان المميز:

- جرى ايه يا سمر.. أنتِ ما بترديش علي ليه يا أستاذة؟

ماهر الرفاعي، رئيس تحرير ذلك الموقع الذي تعمل لحسابه، وأحد أعمدة الصحافة المصرية في الثلاثين عامًا الأخيرة، ورئيس تحرير سابق لدستة من الصحف والمواقع الإخبارية.

- يا ماهر بيه.. يا ماهر بيه لازم تسيبني أشوف شغلي بطريقتي.. احنا اتفقنا على كده.

- لا يا سمر.. اصحي يا ماما.. ده أنا ماهر الرفاعي.. يعني محدش بيشتغل معايا إلا بطريقتي أنا.. وطريقتي أنا بتقول إنك لازم تخليني دايمًا على اطلاع على كل التطورات.

ابتسمت في جذل وهي تلقي بالكلمات كأنها تلقي بحزمة خس ذابلة في وجهه:

- اطلاع على كافة التطورات.. ايه الكلام القديم ده يا ريس؟

زمجر ماهر بصوته الذي يليق برجل في أواخر ثلاثيناته، ولا يشي أبدًا أن صاحبه عجوز على مشارف السبعين:

- بنت.. قولتلك قبل كده.. مش معنى إنك بنت أختي إنك تسمحي لنفسك تسخري مني.. ودلوقتي خلينا في المهم.. وصلتِ لايه؟

- ولا حاجة.

- ولا حاجة ازاي.. اومال بقالك شهر مختفية بتعملي ايه؟

صوت مكتوم منخفض صدر من أحد أمناء المكتبة، محذرًا إياها من رفع صوتها في قدس المكتبة الصامت.

- طب بص يا خالو.. قصدي يا ماهر بيه.. أنا في المكتبة بس ببص على حاجة.. ولو فضلت أتكلم هيرموني برة ويحرموني من دخولها.. فأرجوك سيبني بس ساعة وأنا هكلمك.

صمت ماهر، صمت لأنه يريد أن يجمع إهاناته كلها في جمل قصيرة سريعة كعادته، أو ليسمعها الكلمات المعتادة عن..

- سمر.. خلي بالك.. احنا بقالنا شهر في الموال ده.. وأنا فوت أربع أعداد إلكترونية أسبوعية.. وبرضه معناش قصة ولا أي

تفاصيل حصرية أو انفرادات مدوية.. وأنا مش هعملك شغلك يا سمر.. فشدي حيلك كده.. بدل ما والله.. هرجعك على البيت تاني تقشري بصل وتفصصي توم.. مفهوم يا ...

أنهت المكالمة قبل أن ينطق باسمها، ورفعت يدها معتذرة لتلك السيدة الأنيقة، التي تقف في وسط المكتبة كجنرال حربي، وهي تراقب الحركة في ذلك القطاع من المكتبة الأشهر في مصر في آخر خمس سنوات.

مكتبة كلية الآثار وعلوم المصريات.

هزت رأسها وكأنما تحاول إعادة تشغيل مخها المجهد، من أثر شرب القهوة والسهر بلا نوم كاف منذ أسبوع كامل.

منذ أن بدأت سلسلة الجرائم العنيفة، التي راح ضحيتهاأربعة من كبار أطباء مصر، تطفو على السطح، حتى الجريمة الأخيرة التي راح ضحيتها واحد من كبار أطباء أمراض الدم، وواحد من كبار الباحثين الهواة في سلالات المصريين القدماء.

الرجل الذي سخر أبحاثه في أمراض الدم في محاولة اكتشاف العديد من الحقائق التاريخية المتعلقة بقدماء المصريين، والذي أصدر ما يزيد عن عشرين بحثًا في هذا المجال، تمتلئ بهم أرفف مكتبات وقاعدة بيانات أكثر من مائتي مكتبة إلكترونية.

قطع شرودها فوق صفحات الكتاب صوت كعب حذاء نسائي مكتوب يضرب الأرضية العازلة للصوت، فرفعت عينيها نحو الفتاة الرشيقة التي تتقدم نحوها، والتي سحبت مقعدًا مقابلًا لسمر وجلست أمامها وهي تبتسم في خجل، ثم قالت في خفوت بصوتها المبحوح الشبيه بحك ورق الصنفرة فوق لوح خشبي.

- سمر.. مش كده؟

ابتسمت ابتسامة عملية مما كان يسميها صديق قديم لها «الابتسامة الفلاشية» وقالت:

- ميري.. مش كده؟

أصدرت ميري ضحكة مكتومة، ثم مدت يدها الرقيقةلتسلم على سمر، التي بادلتها السلام في عجل بيد مفتوحة، ثم قالت في عملية مفرطة:

- طبعًا أنتِ عارفة أنا جاية أقابلك ليه.

فهزت ميري رأسها لتهتز خصلة شعرها المعقودة خلف رأسها وقالت:

- أكيد طبعًا.. ما أنتِ مش أول ولا آخر واحدة تيجي تقابلني.. من يوم الكومنت المشئوم ده.. أنتِ عارفة إني مسحته.. وقفلت أكونت الفيس القديم وغيرته.. وبرضه مفيش فايدة.

كررت ابتسامتها وهي تقول بصوت مكتوم ساخر:

- ما هي أصل ضريبة الشهرة كده يا ميري.

ثم تبعت جملتها بابتسامة عصبية سخيفة، حاولت بها أن تداري نبرة السخرية، وعلى الندم الذي ملأ صدرها من جملة كهذه، ومن عواقبها المحتملة.

لكن عقلها كان يعمل بمفرده، بلا أوامر منها، كأي عقل لم يزَ طعم النوم منذ أسبوع كامل.

- المهم.. أقدر أساعدك بايه؟

نظرت سمر حولها يمنة ويسرة كأنها تبحث عن شيء، ثم مدت يدها إلى حقيبتها وهي تقول:

- هو أنا ينفع أدخن هنا؟

- نعم!

أجابتها ميري، ثم نظرت لها في استنكار، وهي تشيربيديها إلى المكان الذي يجلسان فيه، فأومأت سمر برأسها في تفهم، وقالت متابعة:

- مفهوم مفهوم.. طب ممكن نطلع برة شوية عشان أنا عايزة أدخن.. وأهو بالمرة نشم شوية هوا ونعرف نتكلم براحتنا بدل المدام اللي بتنقرنا بعينيها دي.

نظرت ميري إلى مشرفة المكتبة، وحيتها بهزة من رأسها، ثم أشارت بطرف خفي إلى سمر كي تتبعها إلى الباب الخلفي للمكتبة، ومنه إلى ساحة خلفية بسيطة تزدان ببعض الأشجار والورد الذابل.

ضمت سمر ياقة معطفها الجلدي على رقبتها، ثم أخرجت علبة سجائر صغيرة وأشارت لميري التي رفضت مستنكرة.

- كويس والله إن لسه في حد في الزمن ده ما بيدخنش.

أطلقت ميري ضحكة ساخرة لا تتناسب كثيرًا مع مظهرها الهادئ الرقيق وقالت:

- والله المفروض نقول العكس.. أنا مستغربة إن بعداللي عرفناه عن بلاوي التدخين.. لسه في حد بيدخن.

نفثت سمر دخان سيجارتها في الهواء فوق رأسها بعنف لا

يتحمله الأمر كثيرًا، ثم قالت بصوت مليء ببقايا الدخان:

- تقدري تقولي إنه سباق مع الموت.. بشوف مين فينا هيسبق التاني.

بدا عدم الاقتناع والشعور بسخافة الكلام يطفحان من تعابير وجه ميري كبالوعة أمطار مسدودة، بينما قالت سمر في عملية وهي تنفث دخان سيجارتها:

- بصي يا ستي.. أنا مش جاية أسألك عن الكومنت.. أنا جاية أسألك عن مهدي عطالله.

- الله يرحمه ويقدس روحه.. ماله؟

أخرجت سمر جهاز تسجيل إلكتروني صغير، وأشارت إليه وعلى وجهها تعابير الاستفهام، فابتسمت ميري ابتسامة غامضة وهي تغمغم:

- حركة شيك يا سمر.. كان ممكن تسجلي من غير ما تقوليلي.

ارتسم تعبير ساخر على وجه سمر، ثم قربت وجهها من وجه ميري وهي تقول بلهجة حاولت أن تغلفها بغلافها الساخر المعتاد:

- وشرف المهنة يا ميري.. أنا يستحيل أعمل كده.

ابتسمت ميري في سخرية وأشارت بطرف إصبعها للجهاز:

- ده على أساس أن الخمس دقائق اللي فاتوا والجهاز كان بيسجل كانوا على سبيل التجربة مثلًا.. قال شرف المهنة.. وأنا اللي قولت دي ذكية وبتلقط الدعابة.

عقلها يواصل خيانتها، حتى أنه لم يعد يصدر الأوامر الصحيحة إلى يديها، كي تدير شاشة الجهاز بعيدًا عن أعين ميري المتيقظة.

- طب ممكن أكمل تسجيل ولا هيضايقك؟

- معنديش حاجة أخبيها.. وطالما ده تسجيل عشان التفريغ بس.. ومش هيتذاع لا في بودكاست ولا موقع.. يبقى مفيش مانع.

أزاحت سمر جهاز التسجيل من مرمى عيني ميري النفاذتين، ونفثت دخان سيجارتها من جديد قائلة:

- أقسملك بشرف المهنة ...

- لا ما تقسميش.. ما هو أنتِ لو ذعتيه من غير موافقة كتابية مني هتخشي السجن تاني يوم.. فمش محتاجة قَسم.

هزت سمر رأسها من جديد، ثم نفثت دخان سيجارتها من جديد متابعة:

- أنا قريت ملخصات لحوالي ست أبحاث من أبحاث الدكتور مهدي عن أمراض الدم المتوارثة في أجيال الفراعنة و....

- اسمهم قدماء المصريين.. الفراعنة دي جمع فرعون.. وفرعون ده كان شخص مش لقب.

- لا في مجال تاني هنناقش المعضلة دي.. لكن دلوقتي خلينا في موضوعنا.

مطت ميري شفتيها في امتعاض، وأشارت بإصبعها لسمر كي

تستمر:

- الحقيقة إني بعد ما قريت الست ملخصات دول.. وآخرهم اللي آنا كنت غرقانة فيه ومش فاهمة حاجة قبل ما تشرفيني.. والحقيقة إني مش فاهمة ايه أهمية الأبحاث دي وايه تأثيرها على علوم المصريات يعني...

هزت ميري رأسها يمنة ويسرة وهي تضم شفتيها علامة على امتعاضها من ذلك السؤال اللي يحاول اختصار سنوات من البحث والتجريب والنظريات التي استهلكت صاحبها حتى قتلته، ثم أشاحت بوجهها بعيدًا عن مرمى خيط الدخان المتصاعد من طرف السيجارة وهي تجيب في هدوء:

- ده موضوع يطول شرحه.. بس الدكتور مهدي كان عنده نظرية معينة.. مشهورة أوي عندنا هنا في الكلية.. وبقت مشهورة جدًا في السوشيال ميديا مؤخرًا.. لدرجة إن دكتور مشهور عندنا هنا في الكلية قعد يرد عليها ويناقشها في ست محاضرات.

ألقت سمر السيجارة ودهستها بحذائها وسط نظرات ميري المستنكرة، ثم تابعت:

- أنتِ تقصدي نظرية المتحولين الثلاثين.. بتاعة المتحولين وشغل الكوميكس ده؟

- كوميكس.. واضح إنك بتقري بوستات الميمز كتير وعمرك ما قريتِ ملخص النظرية دي.

ابتسمت سمر في إنهاك، إلا أن ابتسامتها حملت لمحة ساخرة،

وهي تتذكر منذ عام عندما قرأت ملخص تلك النظرية الغريبة.

نظرية المتحولين الثلاثين..

ملخص النظرية بشكل مبسط مخل -كعادة كل ما ينشر على وسائل التواصل- أن الفحوص والأبحاث المتكررة التي أجراها الدكتور مهدي على عينات من دماء المصريين على مدار ثلاثين عامًا، ثم فحصه لبعض العينات من مومياوات مصرية، أظهرت له وجود عناصر تحورات جينية في عروق المصريين، وأن الجين إكس الشهير الذي صنعت منه مارفل سلسلة من القصص المصورة الخيالية لرجال سمتهم الرجال إكس، هو حقيقة علمية كانت موجودة على مدى تاريخ مصر، وأنه في زمن قديم، عاش ثلاثون كيان متحول في مصر القديمة، قدسهم الناس ورفعوهم إلى منزلة الآلهة، بل وتزاوجوا معهم، فانتشرت هذه الجينات في دماء المصريين، ورقدت خاملة تنتظر من يوقظها.

وعندما خرجت هذه النظرية من الغرف الهامسة، والنقاشات العلمية إلى أوساط العامة ووسائل التواصل، انقلبت الدنيا رأسًا على عقب، وتحول الموضوع إلى حديث الساعة لفترة لا بأس بها، وانتهى الجدال إلى ركوب الدكتور مهدي لطائرة الخطوط الجوية البريطانية، واستقراره في بريطانيا التي يحمل جنسيتها، ومنحه لقب سير عن مجمل أبحاثه في علاج سرطانات الدم من ملك بريطانيا الشاب.

إلى أن ساقه القدر إلى مصر منذ شهر، كي يقضي نحبه فيها، مشنوقًا بحبل سميك من النايلون، منتهك الجثة، ومنتزع القلب.

تلك المعلومات التي تعرفها سمر عن الجثة، ولا تعرفها ميري ولا أغلب الناس، بسبب حظر النشر، الحظر الذي ينوي ماهر

الرفاعي الالتفاف حوله -كعادته- ونشر كل شيء يخص الضحايا الأربعة، وأهمهم السير مهدي عطالله، دون الإشارة إلى جرائم القتل.

- حاجة تانية يا سمر؟

قطعت ميري شرود سمر الطويل، فأبتسمت ابتسامة عصبية مرهقة، وقالت:

- وتفتكري ممكن يكون للنظرية دي علاقة بجريمة قتله؟

هزت ميري رأسها بهدوء نافية -أو كما تحب أن تعتقد أن النفي هو الإجابة- وتابعت:

- ما يتهيأليش.. أصل الحاجات دي ممكن يبقى آخرها خلاف.. تراشق بالألفاظ والاتهامات.. مقاطعة وهجوم في الجرايد.. آخرها اتهام بالخرف.. لكن قتل.. وقتل طقسي كمان فيه كلمات من كتاب الموتى.. لا مش للدرجة دي.. إلا إذا ...

نظرت لها سمر والتساؤل يقفز من مقلة عينيها العسليتين الواسعتين، وقالت وهي تشعل سيجارة جديدة:

- إلا إذا ايه؟

- إلا إذا كان القاتل نفسه.. واحد من المتحولين الثلاثين.

وهنا سقطت السيجارة من فم سمر، وراحت تسعل في عنف من فرط الدخان المحتبس في فمها.

أو من فرط الضحك..

لا فرق..

المشهد السادس

ليل-داخلي

مكتب رئيس مباحث القاهرة الجديدة-القاهرة الجديدة

مساء العشرين من فبراير عام ألفين وثلاثين

رشف العقيد محمد حارس رشفة ذات صوت مرتفع من كوب قهوة مركز، يرقد فوق مكتبه حتى برد منذ خمس ساعات، ثم سعل سعلتين على سبيل الملل، ورفع رأسه ناحية الصورة المعلقة بجوار باب المكتب.

في الصورة، رأى وجهًا كان سابقًا له، عينان لامعتان تشعان ذكاء وحيوية، ووجه مليح حليق الذقن، وابتسامة واسعة، وبجواره يقف رجل وقور هادئ القسمات، عيناه ثعلبيتان ماكرتان برغم الابتسامة الهادئة.

الله يرحمك يا بابا إبرهيم.

ثم رشف رشفة أخرى، وكأنه يتذكر القهوة المرة التي شربها يوم عزاء اللواء إبراهيم عبد الفتاح، الرجل الذي كان له أبًا بدل أبيه الذي لم يره ولا يذكره.

- أومال بابا راح فين يا أونكل إبراهيم؟

- بابا عند ربنا يا حبيبي.. عند الرحمن الرحيم.. ومسيرنا كلنا هنروحله.. وبعدين ايه اونكل دي.. احنا قولنا أنا مين؟

فيهز الطفل ذو السبع سنوات رأسه ويحك جانبه ثم تلتمع عيناه ويقول في مرح:

- بابا إبراهيم.

- أيوة يا حبيبي.. أنا بابا إبراهيم.. وأنت معزتك عندي من معزة سيف ابني..

ابتسم في حنين، وهربت دمعة ساخنة من طرف عينه اليمنى، فمسحها مسرعًا، وما أن رفع يده من على وجهه غير الحليق، حتى دقت يد ميرية الباب بدوي مكتوم، فرفع عقيرته الخشنة:

- ادخل يا عبد العاطي.

فدلف الأمين الضخم الشبيه بباب زويلة من الباب، وأدى تحية متعجلة قائلًا:

- الخواجة سميث يا فندم.

- اسمه المحقق سميث يا عبد العاطي بلاش فضايح.. اتنجر شوية بقى.. ما بتشوفش مسلسلات على نتفليكس؟

- أستغفر الله العظيم.

ابتسم حارس ساخرًا، ثم أشار له بيده إشارة فهمها الباب المتحرك، وبعد نصف دقيقة كان مايكل سميث يخطو نحو المكتب الخشبي القديم.

- مساء الخير يا عقيد محمد.

- مساء الخير يا مستر سميث.. معلش اعذر عبد العاطي.. أصل تعليمه على قده.

هز سميث رأسه وابتسم ابتسامة هادئة سرعان ما اختفت من على زاوية فمه:

- قصدك عشان كلمة خواجة.. لا أنا ما زعلتش منه.. طبيعي إنه يقول عني خواجة.

هز حارس رأسه وهو يلوي شفتيه، ثم أشعل سيجارة نفث دخانها في سماء الغرفة، وهو يراقب الدخان متصاعدًا نحو كشاف الدخان المعطل مسبقًا بفعل فاعل.

- أنا كنت محتاج شوية معلومات.. ومحتاج أقابل الضابط اللي كان بيحقق في القضية.. وكمان الفورنسيك اللي...

- الايه؟ الفور.. اه قصدك الطبيب الشرعي.

أشار سميث بيده ببساطة وقال:

- مش بس الدكتور يا عقيد محمد.. كمان الخبير اللي رفع بصمات وأدلة.. وأي حد اشتغل على الأربع قضايا.

نفض حارس التبغ على المنفضة بطرف سيجارته، ثم سحب نفسًا عميقًا، وراح يسرح بعينه في سماء الغرفة خلف الدخان، وكأنه فكهاني محترف يزن الطلب. طلب الخواجة سميث.

- بص يا مستر سميث.. أنا عندي تعليمات إني أتعاون معاك بشكل كامل.. بس في قضية واحدة من الأربعة.. قضية السير مهدي عطالله.. وده عشان المرحوم من رعايا جلالة الملك بتاعكم.. لكن القضايا الثلاثة التانيين.. آسف.. لا.

رفع سميث سبابتيه اليمنى واليسرى وعقدها أمام وجه حارس وهو يقول في هدوء:

every thing is connected يا سيادة العقيد.

- بغض النظر يا مستر سميث.. بس ملفات القضايا الثلاثة

التانيين لا.

ابتسم سميث في هدوء، ثم مد يده في جيب معطفه الأسود السميك، وأخرج ورقة مطوية وضعها بيده فوق المكتب خلف اللوحة الخشبية الصغيرة، فقال حارس مستفسرًا:

- ايه ده بقى إن شاء الله؟

- أنا كنت متوقع ردك عليا ده.. عشان كده قبل ما آجي عندك المكتب.. عديت على مكتب معالي الوزير.. وخدت منه الـ permission ده.

أطفأ حارس سيجارته في منتصفها، ثم تناول الورقة المطوية وفضها، ليميز توقيع اللواء توفيق إسماعيل وزير الداخلية.

- تصريح ايه ده؟

رفع سميث عينيه الباردتين مصوبًا إياهما إلى عيني حارس، لتسري في جسده قشعريرة باردة لا يعرف سرها، بينما قال سميث ببرود ينافس برود عينيه:

- لو حضرتك لسه ما قريتش الكلام.. فكملخص سريع.. ده تصريح من مستر إسماعيل إن لي complete unlimited access على كل ملفات وسجلات القضايا الأربعة.. وكمان لي حق أستجوب أي حد وأقابل أي حد متعلق بالجريمة و...

- و ليك الحق تزور أي مسرح جريمة وتعاينه بنفسك.. مفهوم مفهوم.

ثم ضرب حارس بكف يده فوق جهاز صغير على طرف مكتبه، فدلف عبد العاطي إلى الغرفة وهو يصدر تحية عسكرية صارمة،

حتى أن حارس كاد يسأله عن سر هذا الالتزام العسكري المفاجئ أمام الخواجة.

- خد الخـ.. المستر سميث لمكتبه المؤقت في الدورالثالث.. وابعت استدعي الضابط والطبيب الشرعي والخبير الجنائي اللي شغالين معانا على قضية الدكاترة الأربعة.

- ويا ريت مستر عبد العاطي كمان حد من الـ **Archives** .. سوري.. قصدي من السجلات.. عشان محتاج شوية أوراق وصور من هناك.

نظر عبد العاطي في غباء وعدم فهم إلى محمد حارس، مندهشًا من هذا التساهل مع هذا الخواجة الأشقر الرقيع، الشبيه بممثلي الأفلام الهزلية.

إلا أن عبد العاطي لم يستطع بينه وبين نفسه أن ينكر تلك الرهبة التي شعر بها، عندما حدق به هذا الرجل عندما قابله خلف هذا الباب منذ عشر دقائق.

عيناه الرماديتين الباردتين، التي لم يرَ عبد العاطي مثلهما، على طول خبرته مع المجرمين والنصابين وزعماء عصابات المخدرات، والجواسيس والخونة، لكنه لم يرَ عينين مثلهما سابقًا.

- نفذ يا أمين عبد العاطي.

- تمام أوامر سعادتك محمد باشا.

ثم أدى التحية في صرامة، فنهض مايكل سميث وهو يضم طرفي معطفه، ويضم أصبعيه السبابة والوسطى إلى مقدمة

رأسه محييًا حارس:

- شكرا مستر محمد.. محمد حارس صح؟

- صح.. صح يا مستر سميث.

ابتسم سميث ابتسامته الباردة، ثم مال على المكتب هامسًا:

- مستر حارس.. أنت عارف كويس إن التحقيق لو ما كانش بطريقة صح.. هيرجع القاتل يضرب تاني.. وساعتها.. there will be blood.. دم كتير أوي يا مستر محمد.

ثم دار سميث بجسده النحيل في مرونة، واتجه إلى الباب ماشيًا بخطواته الواسعة، فأفسح له عبد العاطي الطريق، وما إن غاب خلف الباب، حتى همس عبد العاطي:

- يا فندم الراجل ده مش مريحني.. عينيه شبه عيون الشياطين.

نظر حارس بعينيه بلا اهتمام إلى الأوراق أمامه متصنعًا الانشغال بها وهو يقول:

- وأنت شوفت شياطين فين قبل كده يا عبد العاطي؟

- ما شوفتش يا فندم.. بس لو كان للشيطان عينين.. هتبقى عيون الراجل دهون.

رفع حارس عينيه إلى عبد العاطي في غضب، وقال في حدة:

- عبد العاطي.. أنا مش فاضي لشغل المجاذيب ده.. روح نفذ الأوامر خلينا نخلص من الشغلانة دي.. وتجيبله كل اللي هو عايزه زي ما طلب.. مفهوم؟

انتصب عبد العاطي وهو ينظر إلى وجه حارس في حزم:

- مفهوم جنابك.

أشار حارس بيده في عدم اكتراث وهو يقول محاولًا إخفاء أمواج السخط والضيق التي تضرب شواطئ عقله:

- يالا.. انصراف أنت.. وخليهم يجيبولي القهوة.. يالا بالخطوة السريعة يا بيه.

ابتسم عبد العاطي وهو يحيي ضابطه المفضل، بل وشقيقه الأكبر كما يصفه دائمًا، ثم انصرف وأغلق الباب خلفه في هدوء.

بينما مد حارس يده إلى درج مكتبه الأوسط، وأخرج ملفًا سميكًا، تتقدمه صورة لمايكل سميث ذات خلفية رمادية قاتمة، تتماشى مع عينيه الرماديتين الجامدتين، واللتين تشعان طاقة من الصورة نفسها.

ثم ابتسم حارس وهو يتذكر كلمات اللواء توفيق ورددها هامسًا ساخرًا:

- بطريقتنا.. بطريقتنا يا محمد باشا.

***

المشهد السابع

مكان ما..

يوم ما من أيام الزمان..

- هذا ما لا يصح ولن أسمح به أبدًا.

صاح سيدي صيحته الهادرة، واحتقن وجهه الأخضر حتى صار لونه كلون الزيتون، ثم جلس فوق العرش الخشبي البسيط، المرصع بورد جاف وقطع من العاج.

لكن السيد رع المقدس، اقترب منه في هدوء، وربت على كتفيه وهو يقول من بين شفتيه الصغيرتين:

- ولماذا لا يصح يا ابن جب المبارك؟ نحن نستحق ذلك.. ألسنا من بعثهم الرب الخالق كي نعبر بكيمت إلى بر الأمان.. ونجعلها أمة موحدة مؤمنة.

- لا تخدعني بكلام معسول يا ابن اتوم.. فأنت تعرف جيدًا أننا عندما وطأنا الأرض السوداء.. كان أهلها يزرعون الزرع ويحرثونه.. ويربون الماشية والحمير.. وكل ما فعلناه أننا علمناهم كيف يحافظون على زرعهم من الخراب وكيف يحافظون على ماشيتهم من الموت بين أنياب السباع وبنات آوى.

هز رع المقدس رأسه في أسى، ثم قال في هدوئه المعتاد:

- دائمًا ما تبخس إخوتك حقهم مقابل تعظيم الفانين يا أوزير.

- نحن كذلك فانون يا رع.. ولن نكون خالدين أبدًا.. كل ما هنالك أن الرب الخالق منحنا أجسادًا أقوى.. وقدرات أقوى.. وجعلنا

منيعين ضد الموت إلى حين.. أتسمعني جيدًا يا عماه.. إلى حين.

رفع رع جناحيه الذهبيين في الهواء إلى مستوى كتفيه العريضتين، وقال في غضب لائم:

- ألا نستحق إذن تكريمًا زائدًا مقابل ما فعلناه.. ومقابل ما حبانا به الرب الخالق يا أوزير؟

نظر سيدي إلى رع المقدس في استنكار، ثم نهض من فوق عرشه الخشبي غاضبًا، واندفع إلى جناح رع الذهبي مشيرًا له بيده، فعاد إلى جوار جسد سيدنا المقدس على غير إرادته، وينما هو يقاوم قدرات سيدي أوزير الغير محدودة، قال سيدي الغاضب بصوته الهادر:

- استمع إليَّ جيدا يا رع.. لقد منحني الرب الخالق قدراتي كي أنفع بها الناس.. كي أعلمهم كيف يحفظون زروعهم.. وكيف يجنون ثمارهم.. كي أعلمهم كيف يدافعون عن بيوتهم وأهلهم وماشيتهم.. لقد سخر لي الرب الرياح والأرض والزرع.. وجعل لأفكاري قوة الفعل بلا أن أفعل.. حتى أجعل من كيمت أرضًا أفضل.. وحتى أقود العامة إلى أرض الخلود بعملهم الصالح..

ثم أنزل أوزير الملك يده إلى الأرض.. فركع رع المقدس بلا مقاومة:

- وإن كنت أمنحك واجبك من التقديس لأنك أولنا.. إلا أني لن أعينك على جعلنا آلهة يعبدها البشر من دون الرب الخالق.. ولن أقيم تمثالًا واحدًا لا لك ولا لي ولا حتى لمحبوبتي إست.. إذا سمعت كلامي وفهمته.. أرجوك أن ترحل إلى جزيرتك وسط النهر.. وأن تنقل كلامي إلى إخوتنا.. وأقرئ تحوتي السلام.. قل

له أن أوزير لا زال ينتظرك متى عدت.

ثم ضم سيدي ذراعه إلى جوار جسده، فانهار رع المقدس على الأرض يلهث مثل من ركض من منف إلى البحر الكبير، ثم نهض متثاقلًا وهو ينظر إلى أوزير في عينيه نظرة لا تحمل إلا الغضب، وبعدها فرد رع المقدس جناحيه الذهبيين، وانطلق مبتعدًا من النافذة الكبيرة، فرحت أراقبه في انبهار وهو يطير فوق النهر الكبير نحو الجنوب.

- قلت لك ألا تسترق السمع يا أنبو!

ارتعدت فرائصي خوفًا، وكدت أقتل نفسي من غبائي، فكيف خيل لي أن أوزير الذي يسمع أفكارنا، سيغفل عن متطفل أبله مثلي، يقف خلف ستائر بلاطه المتواضع البسيط.

- سامحني يا سيدي.. أقصد يا أبي.

ابتسم في حنان جارف، ثم أشار لي كي اقترب منه، فدنوت في خشوع منه، ووقفت خلف ظهره وهو يراقب النهر العظيم من النافذة.

- هذه البلاد مثل نهر أترو العظيم.. لا أول لها ولا آخر.. إلا أن الأيام لا تحمل لها الخير قريبًا.

- لماذا يا سيدي؟

التفت بجسده نحوي، ونظر في عيني تلك النظرة التيأعرفها جيدًا، ثم قال:

- أريد أن أعلمك مما علمني أبي جب.. ومما علمتني أمي نوت.. حتى تعرف كل ما أعرفه.. وتحمل الأمانة التي خلقك الرب

الخالق من أجلها.. وحتى تكون دومًا سندًا لي ولوريثي القادم.

- هل ينوي سيدي أن ينجب قريبًا؟ هل سيدتي إست تحمل مولودًا ملكيًا؟

ربت على كتفي من جديد، ثم أغمض عينيه كأنه يحلم، وخرجت الكلمات من فمه كأنها خارجة من بئر عميقة، حتى أنها راحت تدوي في جنبات عقلي الخاوي.

- سيأتي المنبوذ إلى أرض أترو.. سيأتي حاملًا خلفه الوبال.. وبعده يأتي الوليد ليفدي بعينه أباه وأمه.. لكن.. لا نصر بلا دم.. لا نصر بلا دم.

ثم فتح عينيه على اتساعهما، واشتدت قبضته حول كتفي وهو يهمس بصوت مبحوح:

- سيكون هناك دم.. سيكون هناك دم.

وراح يرددها بلا انقطاع!

***

المشهد الثامن

شارع التسعين

القاهرة الجديدة

مساء الحادي والثلاثين من ديسمبر عام ألفين وتسعة وعشرين

يقترب الدكتور بدر الدين علي من عامه السبعين..

لا شك في ذلك.

فإن كانت بطاقة هويته القومية تكذب، فإن ركبتيه اللتين تئنان من آثر صعود عشر درجات سلم متوسطة الارتفاع، لا يمكن أن تكذبا أبدًا.

كان عائدًا من سهرة عائلية في منزل إحدى بناته، والتيهي بالمناسبة زوجة ابن واحد من كبار مسئولي الدولة، وإحدى دعائمه التي يرتكز عليها بجانب مهارته وخبرته العريضة كطبيب أمراض باطنية.

يذكر جيدًا كيف حاز ثقة رئيس الجمهورية شخصيًا، بعد أن أشرف بنفسه على علاج أحد أفراد عائلته من سرطان القولون للمرة الأولى في تاريخ هذا المرض اللعين، بل واستطاع مستعينًا بمهارته وبعض الأدوية الحديثة في علاج المرض واستئصاله من الجسد على الرغم من المرحلة المتأخرة للمرض.

كان كلما جلس في إحدى سهراته العائلية، لا ينفك يذكر تلك الواقعة بمزيد من الفخر، وهو يطلب من كل المستمعين الكتمان الشديد، على الرغم من أن نصف عائلته، ونصف معارفه، وأغلب مرضاه، يعرفون تلك القصة جيدًا، بل ويستطيعون إعادة سردها بتفاصيلها بنسبة خطأ لا تتجاوز العشرة بالمائة.

- سيادة الرئيس كان ممتن جدًا وسعيد للغاية.

تقولها حفيدته الطالبة في الثانوية العامة، وهي تغلق فمها وتقلد طريقة جدها في لفظ الجملة.

صعد درجة السلم العاشرة نحو باب الفيلا، ثم وضع إبهامه الأيمن فوق لوحة التحكم، فصدر صوت معدني نسائي من مكبر صوت صغير:

- جاري تأكيد الهوية.. رجاءً اذكر كلمة السر.

ابتسم كعادته كلما سمع الجملة، ليشعر كأنه سيلج وكرًا لتجارة المخدرات.

- ٢٣٠١٦٠

صدر الأزيز المعدني، وانفتح الباب مع إضاءة خفيفة لضوء حجرة الجلوس بشكل جزئي، مع صوت معدني آخر يرحب به في هدوء:

- حمدًا لله على السلامة يا دكتور بدر.

- الله يسلمك يا جمعة.. سخن لي المية عشان عايز آخد دش قبل النوم.

ثم همس لنفسه بصوته الهادئ:

- فليحيا الذكاء الاصطناعي.

ثم خلع معطفه السميك، وسترته الصوفية التي تقيه غدر تيارات ديسمبر الباردة، وراح ينعم بتيار الهواء الدافئ الذي ينساب عبر جنبات المنزل، حتى وصل إلى حجرة نومه.

- جمعة.. شغلي أي حاجة لأم كلثوم.

- ايه رأيك في هذه ليلتي؟

- جميلة.. وخصوصًا إنها كانت ليلة مميزة.

اليوم احتفلت حفيدته الكبرى الحبيبة بخطوبتها على رجل مهم، رجل من الرجال الذين لا يعرفهم الكثيرون من العامة، لكنهم من الرجال ذوي الشأن. وهو نصر جديد يضيفه

لانتصاراته الشخصية العديدة، منذ أن اختار أن يكون قريبًا.

نبت صوت أم كلثوم الفخيم من مكبرات الصوت المنتشرة في المنزل، والمخفية بعناية في جنبات المنزل الفخم ذي الطابق الواحد، كما أمر جمعة، خادمه الذكي الأثير.

سماه جمعة منذ أول يوم، لأنه صار أنيس وحدته كما كان جمعة البدائي هو أنيس وحدة روبنسون كروزو في جزيرته النائية.

إلا أن جمعة الخاص به ليس بدائيًا يحمل حربة يصطاد بها الأسماك والحيوانات البرية، بل هو آخر صيحة من صيحات الذكاء الاصطناعي، فهو يدير له مواعيده، ويرد على مكالماته أحيانًا، ويعتني به وبضيوفه، بل ويأتيه بأي معلومة كانت في جزء من الدقيقة.

هذه ليلتي.. هذه.. ليلتي

تصدح أم كلثوم في طرب، وهو يغمر جسده بالماء الساخن، ويزيح بالصابون المعطر الفاخر عناء يوم طويل، ويغسل به يده من آثار مصافحات عديدة جمعته ببعض من يكاد يرى الدم في أيديهم.

الهوى أنت كله والأماني.. فاملأ الكأس بالغرام وهات

يخرج ملتحفًا منشفة كبيرة تغطي أغلب جسده المتجعد الضئيل، فتصنع فوقه درعًا ضخمًا كأنه سلحفاة عجوز، وهو يخطو بهدوء ناحية غرفة نومه

وليكن ليلنا طويلًا طويلًا.. فكثير اللقاء كان قليلًا

يرتدي منامته الصوفية، والجورب الصوفي الثقيل، ويستعد للخلود إلى فراشه الوثير ذي المرتبة الطبية، بينما يتذكر يوم لقائه الأول بهناء، المرحومة بإذن الله هناء عبد الباقي.

يا حبيبي طاب الهوى ما علينا.. لو حملنا الأيام في راحتينا

كان طبيبًا مقيمًا، ويعمل في عيادة بسيطة في الإسكندرية، وكانت هي ابنة سيد عبد الباقي، إمبراطور الجمارك. ولكم بذل من جهود حتى يصل لها، ويكسب ثقة أبيها، ويضع قدميه على أول سلم الشهرة. لقد تزوج المال، وبقي أن يتزوج السلطة والقوة، وهو ما أتاه على طبق من ذهب.

كم من دماء أراق في طريقه، دماء بدون سكين واحد، وكم من أرواح أزهقت في الطريق، حتى يحافظ على المال في حسابه البنكي. وكم من أياد قبل وأقدام، وكم من كلمات نفاق انصبت من فمه حتى يستمر في القرب.

لا يدرى لماذا يتذكر ذلك الآن؟ ربما لأنها ذكرى اللقاء؟

كم أذل الفراق منا لقاء.. كل ليل إذا التقينا صباح

ما هذا الصوت الذي يسمعه؟ صوت يأتي من خلفية صوت أم كلثوم، لكنه يشبه أنفاس شخص انتزعت رئتاه ووضع مكانهما محركا قاطرة بخارية.

إنه صوت لهاث، لا بل صوت خوار، لا بل صوت يختلط به لهاث الكلب، بزئير الأسد وأنفاس ذئب.

هل في ليلتي خيال الندامى.. والنواسي عانق الخياما

لا ليس خيالًا، حتى وإن اختلفت المعاني، لكنه ليس خيالًا.

ثم تلك الرائحة!

رائحة قوية، هي مزيج من روث حيواني وعطر فواح، ورائحة تشبه التراب الذي ملأته الرطوبة.

- أنت بتخرف يا بدر.. بالتأكيد عجزت وبتخرف!

ثم هب من فراشه وجلس على طرفه صائحًا:

- جمعة.. نور النور بالكامل في أوضة النوم.

لكن لا مجيب، وكأن جمعة صمت.

- جمعة.. أنت ما بتنفذش ليه؟

لا مجيب من جديد، والصوت العميق يعلوا ويقترب منه، يقترب في قلب الظلام. نهض متحاملًا، ورأسه يدور كألف لعبة في ملاهٍ مجنونة، سيصل إلى الضوء وينيره يدويًا بأي ثمن، حتى ولو قضى نحبه.

لكن الصوت والرائحة أوقفاه، إنهما هنا في قلب الغرفة!

- أنت مين.. أنت مين؟

لم يكن ينتظر ردا، لكنه لدهشته سمع صوتا عميقًا خشنًا يأتي من قلب الظلام.

- أنا كابوسك القديم يا بدر.. كابوسك اللي جاي عشان ينتزع قلبك من مكانه.. ويحطه على ميزان العدالة..

راح يصرخ في هلع حيواني:

- تنتزع قلب مين.. أنت ما تعرفش أنا مين.. أنا بدر الدين علي..

أنا ممكن....

- أنت بدر الدين علي.. البشري الفاني.. اللي لآن أوان حسابه.. حسابه اللي تقل جدًا ووجب سداده.

حاول أن يلوح بيده في الهواء، أن يضرب الظلام في هيستريا، لكن محاولاته لم تزده إلا تعبًا وإرهاقًا وذعرًا.

ملأ قلبي شوق وملأ كياني.. هذه ليلتي فقف يا زماني

- والآن يا بدر.. جاهز للحظة الحقيقة؟

ثم شعر بتلك القبضة الحديدية تلتف حول رقبته في قوة، والنصل البارد يمر بجوار رقبته.

بينما الأنفاس القوية تضرب وجهه المذعور، والصراخ متجمد في حلقه، وذلك البريق الصاعد من عيني صاحب الصوت يضرب عينيه كألف صاعقة.

- سيدي.. يأتيك عبد ربه بدر بقلبه المليء بالخطايا.. ويقبل كلمة ماعت من خلف الميزان.. فاقبله عندك.. وامنحه صك العبور.. أو امنحه وليمة لعمعموت.

ثم اندفع النصل المعدني إلى رقبته لينفجر منها الدم حوله، بينما يد حديدية تفعل آخر شيء كان يمكن أن يصدقه.

إنها تخترق صدره مباشرة نحو قلبه!

سوف تلهو بنا الحياة.. سوف تلهو بنا الحياة.. وتسخر

وساعتها أظلمت الدنيا تمامًا.. أظلمت بلا عودة!

يتبع